الخطيئـــة

الخطيئة Sin هى ما يعتقد به البشر من انتهاك ما حرمه الله ، والمحظورات التى نهى عنها الرسل والأنبياء . وإذا خرجنا من نطاق العقيدة الدينية ، فإن جميع التجاوزات أو الشرور – من منظور الضمير الإنسانى – تعتبر خطيئة . ظهر مفهوم الخطيئة فى مجتمعات الحضارات القديمة – قبل ظهور الديانات – عندما بدأ تعامل وتفاعل الأفراد مع بعضهم البعض ، ورأى البعض أن آخرين قد تسببوا فى إيذائه ، ووقوع الضرر المادى أو الألم النفسى عليهم . ظهر هذا المفهوم أيضا ، بعد أن كون إنسان المجتمعات الأولى مجموعة من القيم ، ومن المقدسات والمحرمات ، وقام البعض بتدنيسها والاعتداء عليها ، أو عدم احترامها . من وحى الخطيئة تشكل للإنسان أفكار كثيرة نابعة من مفهومه لها ، مثل الضمير / وخز الضمير ، الشر / الخير ، الشيطان / إبليس ، القديسيين ، ... وغيرها.

إذا كانت الخطيئة قد بدأت منذ أن عصى آدم وحواء ما أمرهما به الرب فطردا من الجنة ، واتبعته خطيئته الأخرى بقتل قابيل أخيه هابيل ، فإن العقائد الدينية تذهب إلى أنها لن تنتهى إلا بالخلاص النهائى (يوم القيامة) فالإنسان بطبعه خطاء. القليل من البشر من يقر بخطئه ، ويذهب الكثير إلى العناد والصلف والتكبر ويرفض الاعتراف بالخطأ ، بالرغم من الإقرار بالحق – حتى لو كان على حساب الذات – هو قمة القوة والثقة بالنفس .

كانت الخطيئة هى الفكرة الأساسية فى الدين اليهودى وخاصة فى معتقدات اليهود الأولين . كتب المؤرخ الأمريكى ول ديورانت فى هذا المجال : (لم ير العالم

شعبا آخر أولع بالفضيلة ولع اليهود .... ولما كانت الطبيعة البشرية ضعيفة ، والسنن معقدة وصعبة فلم يكن ثمة مفر من الوقوع فى الخطيئة ، وكثيرا ما كانت الروح اليهودية تتلبد بالغيوم لما ينجم عن الخطيئة من سيئ العواقب ، كحبس المطر أو تدمير إسرائيل ... لم يكن فى هذا الدين جحيم يخصص لعقاب المذنبين ، ولكن «أرض الظلام» التى تحت الأرض لاتقل هولا عن هذا الجحيم . وكان يلقى فيها الموتى جميعهم الطيب منهم والخبيث ، ولا يستثنى منهم إلا المقربون إلى الله كموسى وأخنوخ وإيليا . على أن اليهود قلما كانوا يشيرون إلى حياة أخرى بعد الموت ، ولم يرد فى دينهم شيء عن الخلود ، وكان ثوابهم وعقابهم مقصورين على الحياة الدنيا. ولم تدر فكرة البعث فى خلود اليهود إلا بعد أن فقدوا الرجاء فى أن يكون لهم سلطان فى هذه الأرض ، ولعلهم أخذوا هذه الفكرة عن الفرس ، أو لعلهم أخذوا شيئا منها عن المصريين . ومن هذه الخاتمة الروحية ولدت المسيحية ... وكان يمكن اتقاء الخطيئة ونتائجها بالصلاة والتضحية ، وبدأت التضحية عند الساميين كما بدأت عند الآريين بالضحايا البشرية ، ثم حل الحيوان محل الإنسان فصار يضحى بأولى ثمرات القطعان وباكورة الطعام الذى تنتجه الحقول ، ثم انتهى الأمر أخيرا بالاكتفاء بالتسبيح والثناء على الإله . وكانت عملية الختان نفسها من أعمال التضحية ولربما كانت فدية لتضحية أخرى أشد منها قسوة يكتفى فيها الإله بأخذ جزء من كل . وكان الحيض والولادة كالخطيئة ، يدنسان المرأة ويتطلبان تطهيرا ذا مراسم وتقاليد ، وتضحية وصلاة على يد الكهنة . وكانت المحرمات تحيط بالمؤمنين من كل جانب ، كما كانت الخطيئة كامنة فى كل شهوة من الشهوات ، وكان لابد من الهبات للتكفير عن هذه الخطايا) . كان جزاء خطيئة بنى إسرائيل من صنع عجل مسبوك من الذهب الذى جمعوه وسجدوا له، بعد أن صعد موسى الجبل ليتلقى من الرب الوصايا العشر ، أن طلب الرب من موسى أن يأمر بنى لاوى : (اقتلوا كل واحد أخاه وكل واحد صاحبه وكل واحد قريبه) ، فوقع من بنى إسرائيل نحو ثلاثة آلاف رجل . وبالرغم من تضرع موسى أمام الرب (كما جاء فى التوراه – سفر الخروج – الإصحاح الثانى والثلاثون) فإن رب موسى لم يشفع لبنى إسرائيل خطيئتهم .

ظهر كبش الفداء Scapegoat فى العقيدة الدينية كقربان يتمثل فى حيوان أو إنسان أو شىء رمزى ، ينتقل إليه الخطيئة وبذلك يجب ذبحه ، فيتطهر الإنسان / المجتمع من النجاسة والشر ، أو سوء الحظ الذى يلازمه . أما فى علم النفس فيستخدم هذا المصطلح كعملية إسقاطية على الغير يقوم بها الفرد أو الجماعة ، إذا قصر فى التزام أو أخطأ . عرفت الثقافة العبرية كبش الفداء من خلال كبش عزازئيل Azazel والتى تعنى فى اللغة العبرية: الرب يقول / قوة الرب / القوة المناوئة للرب، وقد ترجع هذه الكلمة إلى الإله الكنعانى «عزيز» . كتب الدكتور عبد الوهاب المسيرى فى موسوعته « اليهود واليهودية والصهيونية » عن عزازئيل : (هو أحد قواد الملائكة الذين سقطوا من السماء . ويعيش عزازئيل حسب الرؤية اليهودية القديمة فى البرية بالقرب من أورشليم . وكان كبير الكهنة يقدم فى يوم الغفران كبشين ، أحدهما قربانا ليهوه ، والآخر قربانا لعزازئيل . وكان الكبش الثانى لا يذبح ، وإنما يطلق سراحه فى البرية ، حاملا ذنوب جماعة يسرائيل ، ولكنه مع هذا كان يذبح فيها أو يدفع من عل حتى لا يعود حاملا هذه الذنوب . ومن الواضح أن عزازئيل هو استمرار لطقوس وثنية ، فهو رمز الشر، بل هو خالق كل الشرور فى العالم ، وهو نقيض يهوه خالق الخير ..... وقد صار عزازئيل فى القبالاه – الصوفية اليهودية – قوة مستقلة تصارع ضد الإله ، ولذلك يقرأ القباليون أدعية لإرضاء الإله وأخرى لإرضاء الشيطان . بل ويؤمن القباليون بأن بعض القرابين فى الهيكل كانت تقدم إلى الشيطان ... ويقال إن كل القرابين فى الأيام السبعة الأولى من عيد المظال كانت تقدم إلى عزازئيل باعتباره حاكم الأغيار ، حتى يظل مشغولا عن اليهود ، وحتى يمكن تقديم القرابين إلى الإله فى اليوم الثامن) .

تعنى المعمودية / التعميد Beptism الاحتفال بالدخول فى الديانة المسيحية، إما بغمسه فى الماء إذا كان طفلا ، أو رش الماء عليه . لم تكن طقوس التعميد فى الأصل مرتبطة باتباع السيد المسيح ، وإنما ارتبطت باتباع يوحنا المعمدان ، ثم انتقلت هذه الطقوس إلى المسيحية . كان التعميد عند يوحنا المعمدان يوقظ الخاطئ وينبهه إلى

خطيئته ، أما فى المسيحية فقد أصبح الهدف هو إيقاظ الخاطئ من الخطيئة الأصلية ، وهى خطيئة آدم التى هبطت – طبقا للعقيدة المسيحية – إلى جميع البشر ، ويعتبر التعميد خلاصا للنفس من هذه الخطيئة .

إذا كان السيد المسيح متشددا مع الخطاة من الرجال ، كما جاء فى الإنجيل : (قد سمعتم أنه قيل لا تزن. وأما أنا فأقول لكم إن كل من ينظر إلى امرأة ليشتهيها فقد زنى بها فى قلبه . فإن كانت عينك اليمنى تعثرك فاقلعها وألقها عنك) ، فإنه كان متسامحا مع الخطاة من النساء . كان المسيح عليه السلام فى الهيكل وجاء إليه جمع من الشعب فجلس يعلمهم ، وقدم إليه الكتبة والفريسيون امرأة أمسكت فى زنا ، وقالوا للسيد المسيح : يا معلم هذه المرأة أمسكت وهى تزنى ، وموسى فى الناموس أوصانا أن مثل هذه الخاطئة يجب أن ترجم ، فماذا تقول أنت؟ قالوا هذا ليجربوه لكى يكون لهم ما يشتكون به عليه . انحنى يسوع إلى أسفل وكان يكتب بأصبعه على الأرض، ولما استمروا يسألونه انتصب وقال لهم : «من كان منكم بلا خطية فليرمها أولاً بحجر»، لما سمع الحاضرون كلام السيد المسيح، وكانت ضمائرهم تبكتهم خرجوا واحداً فواحداً مبتدئين من الشيوخ إلى الآخرين، وبقى يسوع وحده والمرأة واقفة فى الوسط، فلما انتصب يسوع ولم ينظر أحداً سوى المرأة قال لها : يا امرأة أين هم أولئك المشتكون عليك، أما دانك أحد. فقالت المرأة: لا أحد يا سيد، فقال لها يسوع: ولا أنا أدينك، اذهبى ولا تخطئ أيضاً . إن الأنبياء والرسل لم يأتوا ليدعوا الأبرار، بل جاءوا من أجل دعوة الخطاة إلى التوبة .

من المواضيع الشائكة والمثيرة للمناقشة والاختلاف فى الفلسفة الأخلاقية ، علاقة « الصواب » Right كواجب إلزامى Imperative ، و « الخير » Good كشىء مرغوب فيه Desirable . يمكن الاكتفاء بالتحليل البسيط الذى يذهب إلى أن الغرض أو الهدف الصائب يتماشى مع النتيجة الخيرة . ولكن فى الواقع العملى ، لا يستطيع إنسان أن يؤكد – حين اتخاذ قرار ما – أن كان القرار الصائب كهدف – من منظوره الشخصى – سوف يؤدى إلى نتيجة خيرة أم العكس . فى هذه الحالة ،

ومن منطلق الأخلاق هل نحاسب متخذ القرار – إذا كانت النتيجة سلبية – بالرغم من أن الهدف كان من أجل الصالح . قد تختلف أفكار وآراء الفلاسفة والعلماء والمفكرين ، ولكنها جميعًا تنطق بشيء من الحقيقة ، وقد تتصارع وتتضارب المذاهب والمدارس الفكرية ولكن جزءًا منها قد يكون فيه شيء من الصواب . إن الحقيقة المطلقة أو الحقيقة الكاملة تكمن فى تجميع الحقيقة المتناثرة فى كل مكان وزمان .

إذا كان الشر هو المقابل العكسى للخير، فما هو تعريف الشر ...؟ اتفق الفلاسفة على التفرقة بين الشرور الطبيعية Natural Evils مثل الزلازل والعواصف والأعاصير والفيضانات والتى تدمر الطبيعة وما صنعه الإنسان، وبين الشرور الأخلاقية Moral Evils مثل الكراهية والطمع والحقد والحسد والشهوة المحرمة، وكلها أشياء تهدف ــ عن عمد ــ إلى إلحاق الضرر بالآخرين . تعاملت العقائد الدينية مع الخير / الشر كحقيقتين قائمتين ومتصارعتين، وسيستمر هذا الصراع إلى نهاية الكون، كما أكدت على وجود الشر فى عالم الشياطين،وفى الروح الإنسانية الشريرة .

يقع مفهوم الشيطان Evil ــ من المنظور السلوكى والأخلاقى فى المقابل الآخر من الخير . يذهب الفلاسفة إلى أنه : إذا سلمنا بوجود كون مرتب ومنظم بأصول منطقية، وبتخصيص أكثر : إذا وجد الخالق الخير/ الرحيم / القادر، ذو السلطة المطلقة Omnipotent والقدرة غير المحدودة، فإن الشيطان هو الذى يؤدى إلى الفوضى فى النظام الإلهى ، وهو الذى يجلب الأسى والحزن والمحن ، والبلايا والفواجع ، والكوارث والنكبات . ويعزو – بعض الناس – إلى الشيطان أيضا سوء الحظ الذى يلازم الإنسان فى بعض أو كثير من الأحيان . كما يذهب الكثير من البشر إلى أن الشيطان يتسبب فى وجود القيم غير الأخلاقية والسلوك المرفوض من زمرة المجتمع مثل الكراهية والطمع والشهوة والحسد والحقد والأنانية والضلال ، ... وإلهاء الإنسان عن دينه .

ظهر مفهوم الشيطان فى الحضارة الفارسية القديمة متمثلا فى صراعه مع الخالق، لينهزم فى النهاية. كانت حشود الأرواح الشريرة وجماعة الشياطين فى الفكر الفارسى

تعارض القوى السماوية وتحارب الملائكة المقربين الى الله ، أو كما كتب الدكتور إمام عبد الفتاح فى كتابه «المعتقدات الدينية لدى الشعوب» عن الديانة الزرادشتية : (إن الزرادشتين ، على خلاف بعض الديانات الأخرى ، لا يعتقدون أن المادة شر . والواقع أن الشيطان ، لا الكائنات البشرية ، هو الذى يوجد فى عالم مادى غريب ، وهو لايستطيع أن يتخذ شكلا ماديا وإنما يبقى فى العالم متطفلا محاولا عبثا تدمير أعمال الله ... الزرادشتين لم يقابلوا بين الروح والجسد لأن النفس والبدن عندهم وحدة واحدة ، وإذا ما انسحب المرء من العالم كما يفعل الناسك ، فإنه بذلك ينبذ عالم الله . ومن هنا كان الزهد خطيئة كبرى مثله مثل الانغماس فى الشهوات . وعلى الرجال واجب دينى يفرض عليهم أن تكون لهم زوجة وأطفال وبذلك يزيدون من أتباع ديانة الخير، أو من المؤمنين بالأفعال المقدسة) أنزل الله الأديان السماوية ، وفيها يتمثل الشيطان فى إغراء الإنسان لارتكاب المعاصى والبعد عن عبادة الخالق. وانتشر مفهوم الشيطان فى الحضارات القديمة والحديثة ، وحكيت حوله الأساطير ليصبح جزءا لا يتجزأ من الثقافة العامة للإنسان .